الابن

للكاتب الفرنسي بول بورجيه

بقلم الأديب كمال الحريري

استيقظت مدام « ليجيه » في صبيحة هذا اليوم قلقة بادية الهموم والتفكير . فقد كان عليها أن تضع حداً لحياتها كأرملة في مقتبل العمر ، ولحياتها كأم ذات بنين ثلاثة . فلقد مضى على وفاة زوجها وهي إذ ذاك في الثالثة والثلاثين عامان كاملان . وكانت وفاته بعلة ذات الجنب التي غالته وشيكا من دائرة عمله كمحام له شهرة مستفيضة ومحل من قلوب الناس . ومنذ ستة أسابيع سلفت قبل هذا الصباح الذي تستفيق فيه مدام « ليجيه » حائرة مفكرة ، اجترأ « جورج فوكولت » صديق بعلها المرحوم ومحام مثله أمضى معه سني الجامعة ثم لزم زوجها في دائرته لزوم الشريك وفي بيته لزوم الصاحب ، اجترأ هذا الزميل على أن يقول للأرملة الصبية منذ ستة أسابيع :

— إني لأحمل لك أيتها السيدة منذ طويل عاطفة لم أستطع استكناهها ولا فهم طبيعتها إلا منذ اليوم الذي غادرنا فيه صديقي العزيز زوجك ، فأصبحت بوفاته حرة التصرف مالكة لزمام أمرك . وأظنك كنت تستشعرين مني هذا الصمت الناطق وتحسين احترامي للراحل الفقيد وتقدرين رعايتي لك . فبسببك يا سيدتي « ومعذرة من اعترافي بهذه الحقيقة » قطعت كل صلة تربطني بامرأة أخرى في هذه الحياة ، وأنت كامرأة في ريّق شبابها واكتمال أنوثتها ، لك الحق بل يجب عليك أن تستأنفي حياة الزوجية السعيدة من جديد . وإذن فهل أستطيع أن آمل يا سيدتي أن تعتبريني الزوج المخلص الذي سيكون من أشهى أحلامه أن يضحي راحته وحياته لأجلك ... إني أحبك ... يا سيدتي ، ولعلها المرة الأولى التي أسمح فيها لنفسي بنطق هذه الكلمة الجريئة على مسمع منك ... أما أنت يا سيدتي فليس عندك إلا كلمة واحدة تقولينها لي في هذه اللحظة ستكون هي الأولى والأخيرة . ولكن بحقك لا تلفظيها إلا بعد تأمل في عاقبتها ، فان ما أجن لك من هوى دفين لأمر من الأهمية والخطورة بحيث لا تكفيه كلمة أو جواب يقال على استعجال واقتضاب . قالت مدام « ليجيه » وصوتها راجف وطرفها خاشع :

— أتطلب مني استئنافاً لحياتي الزوجية معك ؟ ثم جمد لسانها عند هذه الكلمة فلم تأت « بلا » أو « بنعم » ؛ وأخيراً جسرت فقالت :

ولكن حياتي لا يمكن ترميمها ولا استئنافها . إنك تتكلم عن الحق والواجب وأنا لا أعرف إلا حقاً واحداً : هو السهر على أولادي ، ولا أفهم إلا واجباً فرداً : هو واجبي نحو أبنائي الثلاثة . . قال الصديق الخاطب :

— أو لا تشعرين أني أحبهم هم أيضاً وأعزهم وأحنو عليهم كأبيهم صديقي الراحل ... ؟! ومن

لعمرى سيحل محل الأب الراحل إن لم يحله صديق أبيهم وصفيه ؟ وهل غيري يعرف ميول صديقه وذوقه ومشربه فى التربية والمسلك ؟ وإذن فهل تسمحين يا سيدتى أن أشغل مكان الأب الراحل ؟ أترضين أن تكونى امرأتى أمام الله والناس

قالت الأرملة فى حسرة وتردد :

— خلني الآن لشأني ... هلا جنبتنى الكلام فى هذا الموضوع .. ؟! إنه ليؤلمنى البحث فيه ويسبب لى كثيراً من الشجن والشجو

لا أعرف شيئاً . لا أفهم شيئاً . لست بمستطيعة أن ألمح فى قرارة نفسى المظلمة عاطفة أستطيع منها إجابتك على سؤالك لأني أجهل نفسي ... ولكنى أعدك أن جوابى سيكون بعد قليل من الزمن ... أما الآن فلا أستطيع، أجل لا أستطيع .. فأجاب جورج فوكولت :

— سأنتظر كلمتك كما تشائين وأنى تشائين . إنك إلا تقولى « لا » هذه اللحظة فيحسبى ، لأن ذلك معناه أنك قد تتبصرين خلال سجوف المستقبل الكلمة الحبيبة إلى قلبي وهى « نعم » . إن التردد والتحير مؤلمان للقلب مزهقان للروح إذا لم يكن القلب المنتظر فى شرخ شبابه . قال ذلك وأبان لها عن طرف لمته وقد طرزتها سنوه الأربعون بأسلاك الشيب البيضاء . فأحست المرأة الأرملة وهى تتأمل وخطات الشيب فى رأسه ، وتنظر إلى أثر النائب الصامت من عينيه السوداوين : أن موسيو جورج إنما يقيس سعادته فى هذه الدنيا بمقياس ما بقى له من سنين فيها ، وكأن نظرته كانت تقول لها : إن ما يطويه الشباب اللاهى من متع ومباهج لن ينشرها كفن المشيب مهما يمتد ويصف ثوبه . ثم يستأنف حديثه ويقول :

— إنه إحسان منك على أى حال أن تحددى لقلبى الشهيد موعداً للجواب كى أغادرك وأنا أقول لنفسى من يوم لآخر ستوافينى نعمة جوابها فى يوم كذا .. « كاترين »، أيتها العزيزة، اختارى بنفسك اليوم الموعود وعينى تاريخه ، وليكن القرب والبعد على ما يوافق رغبتك وهواك ... أما أنا فسأعاهدك الآن عهداً لا أنحث فيه ولا أنحرف ألا أخوض فى ذكر هذا الموضوع الذى سيكون برغم هذا هو شغلى الشاغل وهمى الناصب .. فحددى بعيشك موعد جوابك . وهنا تمتمت مدام « ليجيه » بصوت محتبس ولهجة ضارعة : سيكون ذلك حين ينتهى أجل حدادى على زوجى الراحل ، وبما أنك تدعى حبى فأرجوك التمسك بوعدك منذ الآن كما أتمسك بوعدى أنا . والآن أرجو ألا تلح على فى هذا الشأن فقد كفانى ما كفانى ...

ثم يقول لها ، وهو يود أن يوضح بالوقت المعين كل شك وغموض يمكن أن يعتور موعده المرجى : وإذن فسيكون جوابك بعد أسابيع في الرابع عشر من نيسان ؟! فأجابت على هذا بإيماءة من رأسها ثم انعقد بينهما جو من الصمت ...

لقد غالت يد الموت زوجها الحبيب فى الرابع عشر من إبريل أى منذ اثنين وعشرين شهراً سلفت قبل هذا اليوم الذى تجالس فيه مدام « ليجيه » خطيبها المسيو جورج . كل ذلك جال بذهن « مدام ليجيه » وذهن الخاطب الصديق الذى شعر بثقل كلمته على نفس الزوجة بعد أن عين لها الوعد المضروب ...

أن يستأنف المرء حياته دون أن يعوج بذكرى أحبته الراحلين عن الدنيا فى ذلك وياللحسرة إساءة

إلى ذكراهم الغابرة وعهودهم الماضية ، وإذن فمن يغب عن الوجود تمت معه ذكراه وتنعدم ثم يبتلعه هوة العدم إلى غير رجعة ، والهفتاه .

* * *

ومرت على هذا اليوم ستة الأسابيع المضروبة دون أن يلم خلالها طيف الزوج الراحل ودون أن تتردد ذكراه على رأس الخاطب ومدام « ليجيه » فتفسد عليهما خلوتهما اللذيذة وجلساتهما اليومية المتعاقبة ...

ويجد المسيو جورج من اللطف والأدب ألا يعرض لذكر الموعد المرتقب خلال هذه الأسابيع الستة . ثم يرى من الظرف والكياسة أن يغادر (باريس) حين اقتراب اليوم المضروب يوم ١٦ نيسان . أما مدام « ليجيه » فقد أخذت تتهيأ لهذا اليوم وهو ذكرى يوم وفاة زوجها . وقد أحيت هذه الذكرى في ذلك اليوم في شيء من البرود وعدم المبالاة لم تمتزج بهما أثارة من حنان ولا بقية من لجيعة وحسرة . وفي اليوم الثالث عشر من نيسان تسلمت من جورج خاطبها خطاباً ينبئها فيه بزيارته من الغد عند الظهر ، فأقبلت على الرسالة تقرأها مرة ومرتين ثم بدرت منها بادرة غريبة عجبت لها هي نفسها ... وذلك حين رفعت رسالته إلى فمها وقبلت سطورها وفي ظنها أنها إنما تقبل حياة تفيض بالسعادة واللذة خلال هذه السطور .. وأخذت تردد : نعم ... نعم ... سيكون جوابي .. نعم . وإذن فقيم استيقاظها سبيحة هذا اليوم مضطربة حيرى كما أسلفنا ؟ . . . ما الذي حدث خلال هذه الفترة القصيرة بين تقبيلها رسالة جورج نهار الأمس فرحة نشوى وبين الساعة التي ترتفق فيها وسادة سريرها الوثيرة يبدو عليها سهوم وتفكير ؟ ما الذي طرأ عليها يا ترى فبدل عزمها ؟ ! ... وأقبلت الخادم في هذه اللحظة فهصرت أستار الشرفة عن النوافذ والشبابيك فطفت على جوها موجة من نور لألاء ضاحك غمر المكان كله ؛ وكان في شارع « فانو » تشرف نوافذه وشرفاته على بستان القنصلية النمسوية الظليل اليانع . ولمعت زرقة السماء من خلال النوافذ ونفذ تغريد العصافير إلى المسامع شجياً موسيقياً شعرت معه مدام « ليجيه » أن ثوب الجدة الذي تضفيه الطبيعة على جسمها يتفق والموقف الجديد الذي تقفه هي من حياتها الجديدة هذا اليوم ... حتى أن الثوب المزركش الذي حملته الخادم منذ لحظة كان يغريها بأخيلة وخطرات جد حافلة باللذة والسعادة ... ومع ذلك فلم يتقطب جبينها ويربدّ وجهها كلما نظرت إلى عقرب الساعة ينتقل من مكانه ؟ ! مالها تقف حالة ساهمة بدل أن تنشط وتفرح ؟ ... أتراها تتخوف مما عساه يحمله لها هذا اليوم من خوف مجهول ؟ ! ...

* * *

حين تكلمت مدام ليجيه عن واجباتها نحو أولادها لم تقل كل شيء للصديق الخاطب ، لم تعترف له أن ولدها البكر « شارل » ما فتىء منذ شهور مدعاة تخوفها . أبداً لم يتبادل الابن مع أمه كلمة عن « جورج فوكولت » خاطبها الرغيب ، وكان هذا الأخير لا يميز هذا الغلام اليافع في المخاطبة والحوار عن أخيه الصغير « رنيه » وأخته الصغيرة « هيلين » اللذين كان يكلمهما بصيغة الافراد دون كلفة . ولكن إذا شفعت سنو الطفل « رنيه » الخمس وأعوام الطفلة « هيلين » العشر لهذه الصيغة الافرادية يبدي فيها صديق أبيهما حبه وتدليله لهما ،

فان الستة عشر عاماً التى يجتازها الغلام المراهق « شارل » كانت تقيم بينه وبين « جورج » الخاطب جواً مختلفاً عن جو أخويه فيه بدل الالفة والعطف وعدم الكلفة الانقباض والنفرة . ومع هذا فقد كان الخاطب الواغل يغضى عن هذا ويتجاهل ، بل لقد أخذ فى الآونة الأخيرة يضاعف عطفه على الغلام ويبتغى الوسيلة إلى قلبه النافر ووجهه العابس الصامت

وتلاحظ مدام « ليجيه » ذلك السلوك المحبب الجذاب الذى يعامل به الخاطب ولدها البكر فتغتبط به وتنشرح له

ولكن رغم كل هذا كانت تترقب من ابنها رفضاً وثورة أخذت تحسب حسابهما وتتهيأ لهما منذ أيام

من هنا كانت حيرتها وقلقها فى هذه الصبيحة الباسمة من نيسان التى كان عليها فيها أن تقول كلمتها الأخيرة فى رفض يد « جورج » أو قبولها . ولهذا وحده هى تدبر فى ذهنها الصورة المستحبة الملائمة التى يمكنها بها أن تفجأ ولدها دون أن تؤذيه أو تسوءه فى عزة نفسه ، فكانت تردد :

— كان على أن أنبئه بذلك وأسبر غور رضاه أو رفضه منذ ستة أسابيع ... غير أنى لم أستطع ذلك لأنى أجدنى أمامه مرتبكة مشلولة الارادة كأنى بحضرة أبيه الراحل . فيالله كم يشبهه حتى كأنه صورته الثانية ؟ ! وعلى كل حال فان جورج أحسن فى تحببه إليه وترضيه . . . وذكر اسم جورج هكذا مراراً ، دل المرأة على أنها تنطوى له على حب وميل ...

نعم يلوح لها أنها تحبه بأنصاف من العواطف والميول غير متكاملة ولا متكونة . ولكن ذلك ويا للأسف كان يزيد ألمها ويضاعف شجوها ... أجل إن جورج محق فى قوله . فواجب علىّ معاودة حياتى الزوجية ، وأنا بهذا لا أنال شيئاً من زوجي الميت ولا أسوؤه فى كرامته . كذلك لا أفتات على أولادى الأحبة الذين تركنى لهم ، لأن جورج سيحبهم وسيحنو عليهم . والصغيران يحسان بهذا ويقدرانه فى سذاجة وطهارة . أما شارل ولدى الحبيب فسوف يقدره كذلك إن تفكر وتدبر . آه لشد ما يحب أباه هذا الصغير ! إنه لينمو ويتفتح للحياة يوماً بعد يوم كأنما تتعهد نماءه معجزة من السماء

هو الأول فى صفه فى مدرسة «سانت لويس» وإنه يتربع بين رفقائه وزملائه بصورة غريبة سريعة كأنما وطن نفسه على أن يسد الفراغ الذى تركه أبوه من بعده ، إن لم يكن قد قام فى نفسه أكثر من هذا : أن يكون خليفة أبيه فى البيت ورب الأسرة التى كان يحلم أن يكون حاميها وراعيها . فيا للقسوة والنكران ! وكيف تجرؤ هذه الأم أن تسلم أمور البيت إلى راع آخر وحام غريب ؟ !

ومضى الوقت وكادت الساعة تبلغ العاشرة وأفكار المرأة ما زالت تضطرب فى ساحة ذهنها حيرة وذهولا . وفيما هي منصرفة إلى زينتها وترجيل شعرها وتعليق حليها وأقراطها ، إذا طرقات على باب الغرفة تنفذ إلى أذنيها فيجب لها قلبها وترتعش نفسها لأن هذه خطوات ابنها الذى كانت تعتبر نفسها أمامه كمجرم أمام قاضيه . وفى الحق لقد كان الداخل « شارل » الذى توقف على الباب لحظة كالمأخوذ بدل أن يدخل عليها لتوه . قالت له الأم مضطربة قلقة وقد شاهدت تأثراً فجائياً يطبع وجهه

بطابع الألم : ما لك يا بنى ؟ فأجابها الغلام : لا شيء لا شيء ، إنى مشدوه متعجب فقط . . . لقد ألفت أن أراك دائماً فى ثياب الحداد . ولكن ولكن ... صحيح أن حدادنا على أبى قد انتهى؟ فألقت «مدام ليجيه» على المرآة الكبيرة أمامها نظرة غير عامدة فاذا بها تبصر ملامح وجهها الرائق تنسجم أبدع انسجام مع خصلات شعرها الذهبي ، ولكن يناقض ذلك كل المناقضة زى ولدها المدرسى الأسود الغارق كله في حلة من حداد ، ويرتجف صوت الأم حين تهم باجابة ولدها ثم تنجدها لباقتها فتغير مجرى الحديث وتقول :

— ولكن ... قل لى ... لعلك مسرور من أستاذك هذا الصباح ؟ ثم ... ثم كيف حال كتابتك فى الانشاء ، أظنها أعجبته ؟ ! ثم ناجت نفسها :

— سأثبت لحظة قبل الاعتراف له بالحقيقة خصوصاً وهو متأثر ومفاجأ بهذا اللباس والوقت متسع للغداء وللافضاء إليه بالأمر ...

* * *

على رغم أن المحامى المتوفى موسيو «ليجيه» قد خلف لعائلته بفضل مركزه الخطير ونجاحه الكثير ثروة لا بأس بها ، فان مدام « ليجيه » لم تخالف شيئاً مما ألفته سابقاً من تدبير واقتصاد فى الانفاق على المنزل . ولما كانت مدام ليجيه لا تستقبل فى مفتتح عهدها بالترمل إلا أقرباء يمتون إلى الزوج بصلات القربى والمودة ، فان الاعداد لذكرى الميت لم يكن ليحملهم جهداً أو مشقة . ولكن أنى لها بملء كرسى زوجها بشخص خاطبها جورج فى حفلة الغد ؟ أى عذر ستعتذر به لولدها ؟ كيف تخل بهذه العادة التى يقدسها ابنها ويمجدها، والتى باتت تبهظ روحها وتثقل على قلبها لأن صورة الخاطب أخذت تحتل مكانها يوماً بعد يوم من قلبها

وفى صباح هذا اليوم فى وثبة طافرة من وثبات الارادة الغريزية أمرت مدام ليجيه الخادم فقالت :

— لويس، لاتضع فى هذا الغداء مقعد المرحوم زوجى على المائدة ، بل عليك أن تضع مكانه مقعداً لجورج فوكولت ...

وحان وقت الغداء واتخذت العائلة أمكنتها حول المائدة، ولكن « شارل » الصغير ما كاد يرى المائدة والكرسى الجديد بدل كرسى أبيه المتوفى حتى حملق فى وجه أمه وقد امتقع وجهه وانتكس لونه أولاً ثم احمر واشتعل بالدم الملتهب . ونظرت إليه الأم برعب وهيبة ، ثم صبغ وجهها الاحمرار هي أيضاً . ولكن فى تلك اللحظة الرهيبة الحرجة جرى أمر زاد فى اضطراب مدام ليجيه وارتباكها ثم حيرها ، ولكنه فى الوقت نفسه أجرى المسألة فى مجرى حسن لم تكن تتوقعه مدام « ليجيه » . فبينما كانت تتناول بيدها مسند مقعد كى تجلس إلى المائدة إذا « بشارل » ولدها يلقى عليها نظرة تفيض بالحنان والشكر ثم تخضل عيناه بالدمع الذى لم يكن منبعه الحنق عليها ولا الغضب منها وإنما هو الامتنان منها والشكر لها ... ولكن عن أى شيء صدر هذا الامتنان ؟ ! تجم مما صوره له وهمه دون أن يتفاطن بالحقيقة الواقعة فلم يلاحظ الولد الطيب صورة المفاجأة والدهشة التى بدت على وجه أمه ، ولا نظرات الارتباك المتبادلة بينها وبين الخادم ، فقر فى ذهنه أن أمه إنما تبرعت له بمكان أبيه مراعاة له وتبديداً لظنونه السابقة فى وفائها لأبيه ، لهذا احتل مقعد أبيه أو الكرسى الذى وُضع للخاطب « جورج فوكولت » محل كرسي أبيه ، وقلبه يخفق من الفرح

والشكر وحلقه غاص من الذكرى والحنين . . . وانتهى الغداء وخلا المكان « بشارل » وبأمه فضم « شارل » أمه إلى صدره بشوق وشكران وراح يقول لها وقد أرخى لعبراته العنان حتى بللت وجه الأم المسكينة الحائرة :

— آه، شكراً لك ألف مرة يا أماه. فقالت أمه في حيرة :

— ولكن لم هـذا الشكر يا بني ؟ ! فقاطعها دون أن يترك لها الفرصة لمتابعة حديثها :

— أشكرك لأنك أحللتني محل أبي على مائدة الطعام في اليوم الذي تخلعين عنك فيه ثوب الحداد . إنك لا تدرين أي جميل أسديته إليّ وملأت به قلبي الحزين . . آه . . ولكن يجب أن أعترف لك بصراحة. لقد كنت منذ زمن أشك ، بل أخاف من تصرفاتك فاغفري لي الآن هـذه الشكوك والظنون . نعم كنت أخشى أن تسنح لك في يوم ما فكرة الزواج لأنك ما تزالين صبية . ولقد أبصرت ثلاث أمهات من أمهات رفقائي في المدرسة يتزوجن ويسلمن أبناءهن لأب ثان غريب عنهم . ولكنك أجلستني تجاهك منذ لحظة على مقعد أبي المرحوم فأدركت أنك تريدين أن تقولي لي : املأ محل أبيك يابني فقد آن لك أن تشغله وتواجه أختك وأخاك العزيزين وأمك التي تحبك ، ولكن إن أشغل مكان أبي ذلك الأب الذكي الطيب ، فذلك ما ليس في وسعي ولكن أعاهدك أن أبذل له جهدي . وهنا تمثل لمدام « ليجيه » أنها كانت ستحطم قلب ابنها النبيل لو أنها انقادت لهواها الذي بدأت تشعر به نحو « شارل »

وفي هذه اللحظة وبينما كانت « مدام ليجيه » تضطرب بين الماضي والحاضر ، وتترجح بين تيارين طاغيين : تيار جارف عنيف من حب امرأة صبية حسناء ، وآخر هادىء عميق من عطف أم رؤوم ، إذا برنين الجرس ينتزعها من ذراعي ابنها الذي كانت تحتضنه وتضمه إلى صدرها بحرارة وشوق . .

لم تكن مخدوعة فقد جاءها الخادم بعد ثوان يطلب الاذن لموسيو جورج الخاطب الجديد، فأبدى ابنها « شارل » حركة مفاجئة أراد معها الانسحاب من قاعة الاستقبال ولكن الأم فهمت منه هذه الحركة فقالت في كبرياء ممزوجة بألم :

— إبق مكانك يا « شارل » ثم التفتت إلى الخادم وهي تقول :

— قل لموسيو « جورج فوكولت » إنه من المستحيل عليّ مواجهته هذه الساعة وسأكتب له جوابي كتابة ...

وحين انفردت بابنها راحت تعانقه في لهفة وابتهاج ثم قالت : أبداً لن أتزوج يا شارل العزيز . أبداً لن أثقل عليك بأب يؤلم نفسك ويجرح قلبك . لن أرضى أن تتألم أنت كي أسعد أنا . إنك حسبي من دنياي يا بني وأظن أني حسبك أيضاً

كمال الحريري

آلام فرتر

للشاعر الفيلسوف جوته الألماني

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

وهي قصة عالية تعد بحق من آثار الفن الخالد

تطلب من إدارة مجلة الرسالة

وثمنها ١٥ قرشاً